Journal of Al-Farabi for Humanity Sciences (3) Issue (1) May(2024)

ISSN: 2957-3874 (Print)
Journal of Al-Farabi for Humanity Sciences (JFHS)
https://www.iasj.net/iasj/journal/419/issues
مجلة الفارابي للعلوم الإنسانية تصدرها كلية الفارابي الجامعة

تحليل أثر العقيدة في المجتمعات الإسلامية وتأثيراتها على السلوك الاجتماعي. دراسة فكرية

علي حمد علي المحمدي
ali982hamad@gmail.com
م.د. عبدالرحمن طه بديوي
ديوان الوقف السني/ الفلوجة
Assist. D. Eabdalrahman tah badiwi
rahmanalalwany@yahoo.com

التلخيص

للعقيدة تأثير مشاهد في سلوك المجتمع، ولما كانت العقيدة مصطلحًا له أسماء أخرى؛ شرعنا ببيان معنى العقيدة لغة واصطلاحًا، وبيان أسمائه الأخرى، وهذا موضوع المبحث الأول من الفصل الأول.وفي المبحث الثاني من نفس الفصل؛ قصرنا الكلام على مفهوم المجتمع الإسلامي وأصوله التي بدأ فيها من لدن بعثة الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.وفي المبحث الثالث من نفس الفصل؛ قصرنا الكلامَ على السلوك ومفهومه لغة واصطلاحًا، مع بيان الفرق بينه وبين الخلق، وتقارب الاثنين، ثم بيان أن السلوك يقبل التغيير كالأخلاق.وقد كان الفصل الأول بمنزلة التقدمة للفصل الثاني الذي ناقش ثلاثة موضوعات:أما المبحث الأول منه؛ فقد ناقشنا تأثير العقيدة في سلوك الفرد، وذكرنا من ذلك ستة أمور مع بيان كيفية تغيير المرء لسلوكه.وأما المبحث الثاني منه؛ فقد ناقشنا تأثير العقيدة في سلوك المجتمع كله، وقد ذكرنا ثلاثة نماذج من ذلك عامة شاملة.وأما المبحث الثالث؛ فقد ناقشنا فيه حاجة المجتمعات غير المسلمة إلى العقيدة الإسلامية، وذلك حاصل في أمرين: الحاجة النفسية، والحاجة السلوكية.ثم ختمنا البحث بخاتمة بأهم النتائج المهمة التي خلصنا منها في هذا البحث التحليلي.

Doctrine has a visible impact on the behavior of society, and since doctrine is a term that has other names; We set out to explain the meaning of belief linguistically and idiomatically, and explain its other names, and this is the subject of the first section of the first chapter.In the second section of the same chapter; We limited the discussion to the concept of Islamic society and its origins, which began with the mission of the Messenger, may God bless him and grant him peace.In the third section of the same chapter; We limited the discussion to behavior and its meaning linguistically and idiomatically, explaining the difference between it and morality, and the closeness of the two, then explaining that behavior accepts change like morals.The first chapter served as an introduction to the second chapter, which discussed three topics:As for the first section of it: We discussed the impact of belief on an individual's behavior, and we mentioned six things, along with an explanation of how a person can change his behavior.As for the second section of it: We have discussed the impact of belief on the behavior of society as a whole, and we have mentioned three general and comprehensive examples of this.As for the third topic: In it, we discussed the need of non-Muslim societies for the Islamic faith, and this is due to two things: the psychological need, and the behavioral need.Then we concluded the research with a conclusion with the most important results that we concluded in this analytical research .

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أكمل الناس خلقًا وسلوكًا من غير شبيه ولا نظير في العالمين، اللهم فصلِّ على من كان خلقه القرآن، وأنثى عليه ربه فقال له: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ ﴾ القلم: ٤ .وعلى آله الطيبين الطاهرين، وأصحابه الغر المحجلين، وبعد؛ فهذا موضوع من أهم ما يمكن أن يكتبَ فيه؛ لكون الحاجة ماسَّة إليه، وهو تأثير العقيدة في المجتمعات الإسلامية بعيدًا عن الخلاف بين الفِرَق

المسلمة، رغبةً في كتابة شيء صالح نافع لا تتصارع فيه الأقلام، ولا تبادر إلى مخالفته والنزاع حوله الألسنة بغير النافع من الكلام، والله المسؤول أن ينفع بما كتبته في هذا البحث المتواضع.

أهمية الموضوع:

تتمثل أهمية الموضوع في أنه متعلقة بالجزء النافع –تمام النفع– بلا خلافٍ في العقيدة بعيدًا عن الآراء والمذاهب التي لطالما خسرنا من جرائها خسائر، وأن الموضوع في تأثير العقيدة التي هي تصديق بالقلب في سلوك الفرد والمجتمع.

أسباب اختيار الموضوع:

قد اخترتُ هذا الموضوع؛ لعدة أسباب منها:

(١) حاجة كثير منا إلى التذكير بأنَّ العقيدة لها تأثير في سلوكنا بمجتمعنا، وأن المجتمع له علينا حقٌّ تعيننا عليه عقيدتنا.

(٢) صرف الجهود والأقلام والأذهان والعناية إلى العمل الصالح النافع دون حفظ بعض الألفاظ العقدية التي لا يكتمل أثرها والغاية منها إلا بعد العمل بمضمونه.

(٣) بيان عِظَم النظام الإسلامي العقدي، فهو ليس تصورًا عن الله فقط، ولا عن الكون فقط، وإنما هو نظام متكامل يُعنى بكل ما يخص المرء ويهمه لا سيما في سلوكه الاجتماعي.

أسئلة الدراسة:

أولًا: ما مفهوم العقيدة في اللغة وفي الاصطلاح لا سيما العقيدة الإسلامية؟

ثانيًا: ما المراد بالمجتمع المسلم الذي تؤثر العقيدة في سلوكه؟

ثالثًا: ما مفهوم السلوك الاجتماعي، وما المراد به في هذه الدراسة؟

رابعًا: ما الفرق بين السلوك والخُلق، وما العلاقة بينهما؟

خامسًا: هل للعقيدة تأثير في سلوك الفرد، وما النماذج على ذلك؟

سادسًا: هل للعقيدة تأثير في سلوك المجتمع المسلم كله؟

سابعًا: هل يحتاج المجتمع غير المسلم إلى العقيدة الإسلامية؟

ثامنًا: هل يحتاج المجتمع غير المسلم إلى المسلمين؟

تاسعًا: ما طريقة تهذيب السلوك ورياضته وتحسينه؟

التمهيد

لما كانت العقيدة الإسلامية عقيدةً صحيحةً سليمةً؛ عُلم أنَّ لها تأثيرًا في حياة الإنسان كلها؛ إذ لا بد من أن يكون الدين مصلحًا لنواحي الحياة، صالحًا لكلِّ زمان ومكان؛ إذ هو دين خاتم الأنبياء والمرسلين، وما دام كذلك؛ فهو ممتد إلى يوم القيامة، لا عوج فيه ولا تقصير. وقد أثار ذلك عدة تساؤلات سبق ذكرها، ألفتُ هذا البحث للجواب عنها.ويمكن أن نقول بأنَّ للعقيدة فائدة مهمة يغفل عنها كثيرٌ من الناس منصرفًا إلى بعض المسائل التي ناسبتْ عصرًا ما، ولا تناسب عصرنا الراهن، وإنما الذي يناسبه العودة إلى العقيدة، وتجلية تمام تأثيرها في سلوك الفرد والمجتمع.وقبل البدء في ذلك لا بد من الكشف عن بعض المصطلحات التي تُطلق؛ لئلا يتصوَّر أحدٌ من الكلام غيرَ ما أريده.المقدمة التمهيد الفصل الأول– المبحث الأول: مفهوم العقيدة وأسماؤها الأخرى– المبحث الثاني: مفهوم المجتمع الإسلامي وأصوله.– المبحث الثالث: مفهوم السلوك الاجتماعي ومؤثراته.الفصل الثاني:– المبحث الأول: أثر العقيدة في الفرد.– المبحث الثاني: أثر العقيدة في المجتمع الإسلامي وسلوكه.– المبحث الثالث: حاجة المجتمعات غير المسلِمة إلى الإسلام.الخاتمة: أهم النتائج.

الفصل الأول

المبحث الأول مفهوم العقيدة وأسماؤها الأخرى

إن من أهم المراحل في معالجة الموضوعات المختلفة ضبط المفاهيم بوضع الحدود الضابطة المحكمة، وبيان أسماء المسمَّى والمفهوم الذي يُناقَش ويُعالج في موضوعٍ ما، ومن ذلك مصطلح العقيدة الذي هو من أهم وأشهر أسماء التوحيد، وهو مشترك بين مختلَف الفِرَق، ولذلك آثرتُ التعبير به؛ لجمع الكلمة، وتوحيد القلوب على الغاية من هذه الدراسة، وسوف نعرض في هذا المبحث العقيدة لغة واصطلاحًا، وأسماءها الأخرى.

العقيدة في اللغة: من عقد، «والعين والقاف والدال أصل واحد يدل على شد وشدة وثوق ... يُقال: اعتقد فلان عقدة، أي: اتَّخذها، واعتقد مالًا وأخًا، أي: اقتناه، وعقد قلبه على كذا؛ فلا ينزع عنه»[١]، وورد في القاموس المحيط: «عقد الحبل والبيع والعهد يعقده: شده»[٢]، وجاء في المعجم الوسيط: «العقيدة: الحكم الذي لا يقبل الشَّك فيه لدى معتقده»[٣].ويظهر من خلال ما عرضناه أن العقيدة في اللغة ترجع إلى شدة الوثوق، وهو أعلى درجات الربط والعقد في الحسيَّات، وقد نُقِلَ هذا إلى شدة الوثوق، وتمام اليقين، وأعلى درجات الإيمان في المعنويات.

والعقيدة في الاصطلاح هي: «الأحكام الشَّرعيَّة الاعتقاديَّة التي يُطلَب من المُكلَّف الإيمانُ بصحَّتِها»[٤].من خلال من سابق تتبين أن العقيدة هي:

أولًا: أحكام شرعية، فليس للإنسان فيها دخل سوى التدبر والتأمل وحسن القراءة والنظر، وليستْ أحكامًا عقليَّةً محضةً، وإن كان العقلُ مناطَ التكليف؛ إذ هي أحكام مأخوذة من الكتاب والسُّنَّة، والعقل وحده لا يصل إليها.

ثانيًا: هي أحكام اعتقادية، فخرج عن ذلك الأحكام العملية، فالعقيدة أحكام يجزم بها المعتقِد بها في نفسه وصدره، وليست كالأحكام التكليفية العمليَّة كالصلاة وغيرها من الأحكام الحسيَّة.

ثالثًا: هي أحكام مطلوبةٌ من المكلَّف، فغيره ليس مطلوبًا منه ذلك، بل هو في حلٍّ من ذلك كالمجنون والطفل، وإن كان من الواجب تعليم الطفل وتربيته على العقيدة الصحيحة.

رابعًا: الإيمانُ بصحَّتها، وهو التَّصديق الجازم، فالتصديق المخلوط بالشك ليس بإيمان.

ولما كانت العقيدة أشرفَ مسمًى؛ أطلق عليها أسماء كثيرة، وهي:

(١) الفقه الأكبر، وهو أقدم أسماء العقيدة، وهو مأخوذ من قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾[٥]، ويفرق هذا عن الفقه المعروف اليوم أن الفقه اثنان: فقه بالأحكام الاعتقادية، وفقه بالأحكام العملية، فالأول الفقه الأكبر، والثاني الفقه المعروف هذه الأيام، وقد فضَّل أبو حنيفة الفقه الأكبر –وهو العقيدة– على الفقه المشهور فقال: «الفقه في الدِّين أفضلُ مِن الفقه في الأحكام، ولَأن يتفقَّهَ الرجل كيف يعبد ربَّه خيرٌ له من أن يجمعَ العِلمَ الكثير»[٦].

(٢) علم الكلام، وهو من أشهر أسمائه، وسُمِّيَ بهذا الاسم؛

«**[أ]** لأن عنوان مباحثه كان قوله: كلام في كذا وكذا.

[ب] ولأنَّ مسألة الكلام كانت أشهر مباحثه وأكثرها نزاعًا وجدالًا...

[ج] ولأنه يورث قدرة على الكلام في تحقيق الشرعيات وإلزام الخصوم كالمنطق للفلسفة.

[د] ولأنه أول ما يجب من العلوم التي إنما تعلم وتتعلم بالكلام، فأطلق عليه هذا الاسم لذلك، ثم خص به، ولم يطلق على غيره تمييزًا.

[هـ] ولأنَّه إنما يتحقق بالمباحثة وإدارة الكلام من الجانبين، وغيره قد يتحقق بمطالعة الكتب والتأمل.

[و] ولأنَّه أكثر العلوم نزاعًا وخلافًا، فيشتد افتقاره إلى الكلام مع المخالفين والرد عليهم.

[ز] ولأنه لقوة أدلته صار كأنه هو الكلام، دون ما عداه من العلوم كما يقال للأقوى من الكلامين: هذا هو الكلام

[ح] ولأنه لابتنائه على الأدلة القطعية المؤيد أكثرها بالأدلة السمعية كان أشدَّ العلوم تأثيرًا في القلب، وتغلغلًا فيه، فسُمِّيَ بالكلام المشتق من الكَلم، وهو الجَرْح، وهذا هو كلام القدماء»[٧].

(٣) علم أصول الدين، وقد وردت كتبٌ متقدِّمة تحمل هذا الاسم كالإبانة عن أصول الديانة للإمام أبي الحسن الأشعري، وأصول الدين لعبد القاهر البغدادي[٨].

(٤) علم التوحيد والصفات، وقد قال السعد في تعليل ذلك: «لما أنَّ ذلك أشهرُ مباحثه وأشرفُ مقاصده»[٩].

(٥) علم التوحيد، وهو على وزن «التفعيل»، وهذا الوزن يفيد معانيَ، منها: النِّسبةَ إلى أصل الفِعل[١٠]، فتوحيد الله، أي: نسبته تعالى إلى الوحدانية.وقد شاع هذا الاسم حديثًا، وهو يكاد يكون مرضيًّا عند جميع الطوائف والفرق، فاستعماله محبب لدى من يريدون جمع الكلمة كمصطلح العقيدة.ومن خلال هذا العرض الموجز لتعريف العقيدة والأسماء التي أُطلقتْ عليها؛ تعلمُ أنَّه حيثما أطلق اسم من هذه الأسماء؛ فالمراد به المعنى والمفهوم الذي تناولناه في هذا المبحث.

المبحث الثاني مفهوم المجتمع الإسلامي وأصوله

كان العرب قبل الإسلام في تفرُّق وتشتت، يستبدُّ كل واحد منهم بما تحت يده من خيرٍ، يذود عنه ويدرأ عنه ما أصابه، ولا شأنَ له بما عند غيره، وكانوا قبائل متناكرة، وشعوبًا متفاخرة، لا همَّ لهم إلا إتيان الشهوات، واقتراف الرغبات، وإذا أتوا شيئًا من مكارم الأخلاق؛ كان حاملَهم على ذلك خشيةُ العيب ولحوق السب والشين، فلما منَّ الله على الخلق طرًّا بإرساله نبيّه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ رحمة للعالمين، وسراجًا منيرًا للضالين المتخبّطين، فأعجز المشركين بحسن بيانه، وآيات كتاب ربّه؛ دخلوا في دين الله أفواجًا، وصار الرسول هو القائد، والتفَّ الجميعُ من بدو وحاضرة حوله، وتناسوْا العصبيَّةَ لقبائلهم، واستُبدل ذلك بحماية دينهم الحنيف، وشريعتهم الغراء.ولما كان المعلّم الأول لهم هو رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ؛ وضع عنهم جاهليتهم وتعصبهم المقيت، وقال: «**ألا لا فضل لعربيٍّ على عجميٍّ، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمرَ على أسود، ولا أسود على أحمر إلَّا بالتَّقوى**»[١١]؛ صار الناس كلهم على قدم المساواة، لهم حاكمٌ واحد، وتحت حكمه العربي وغير العربي، يجمع أولئك الإسلام، ولا يتفضل بعضهم بعضًا إلا بالتقوى، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣ ﴾[١٢].وبعد انتقاله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ إلى الرفيق الأعلى؛ صار هناك خليفة يحكم المسلمين، ويقوم على حوائجهم، وينفذ حكم الله فيهم، واستمرَّ الأمر على ذلك إلى يوم الناس هذا، والذي اختلف عن الماضي أن رقعة الإسلام اتسعت اتساعًا غير محدود، فصار دخول جميع المسلمين تحت حكم واحد متعذرًا، لا يمكن لواحد أن يقومَ على خدمتهم جميعًا، فصار كل مجموعة ترجع إلى أصل واحد في الجنس، وتسكنُ أرضًا واحدة محدودة تُسمَّى شعبًا ومجتمعًا.

مفهوم المجتمع الإسلامي:

من خلال ما سبق يمكن القول بأنَّ المسلمين يندرجون تحت مجتمعات كثيرة، فهناك المجتمع العراقي، والمجتمع المصري، والمجتمع المغربي، والمجتمع الماليزي، غير أن الذي يجمع هذه المجتمعات: الإسلام وأحكامه، فنقول في تعريف المجتمع الإسلام: «**هو الشَّعبُ الذي يرجعُ في سلوكه وأحكامِه وتصوُّراته إلى الشَّريعة الإسلاميَّة (القرآن والسنة، ومقاصدهما)**».ويستفاد من ذلك التعريف عدة أمور:

أولًا: أنَّ هناك مجتمعات إسلامية مختلفة، وليس مجتمعًا واحدًا فقط، ويفرق بينها أحيانًا الجنسية، وأخرى القارة، وأخرى الحدود، لكنَّها في الحقيقةِ ترجعُ إلى المجتمع الإسلامي الكبير إن صح التعبير، وتتبيَّنُ ذلك في الأعياد والمناسبات الكبرى، والذي يمكن أن نطلق عليه مصطلح: «الأُمَّة الإسلاميَّة» أخذًا من قوله تعالى: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ ﴾[١٣].

ثانيًا: أنَّ هذا الشعب يرجع في سلوكه وتصرفاته وتصوراته إلى الشريعة الإسلامية، ففي الأخلاق يقتدي بالرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وفي تصوراته عن الخالق يستفيد ذلك من الكتاب والسنة والعقل الصحيح، وفي تصوراته عن الكون إلى كل علم صالح لا يعارض ولا يناقض صريحًا في الأصلين: الكتاب، والسنة.

ثالثًا: لا يلزم أن يكون المجتمع كلُّه مسلمًا، بل يكفي أن تكون هناك مجموعة من الناس يصحُّ اجتماعهم عقلًا؛ ليتأتَّى لنا أن نقول عنهم: مجتمع إسلامي.

تنبيهات عن المجتمع الإسلامي:

ويمكن أن ننبّهَ عن أمور بالمجتمع الإسلامي:

أولًا: لا يلزم أن يكون خلقه وسلوكه هو القرآن نفسه؛ إذ لا يتصور ذلك في امرئ غير معصوم، فالمسلم على كل حال عنده مرجعية أساسية هي الأصلان: الكتاب، والسنة، لكن لا يقال عن مجتمع شاع فيه مخالفات شرعية معينة: بأنَّه ليس بمجتمع مسلمٍ، فإنَّ عصر الصحابة نفسه لم يكن معصومًا.

ثانيًا: يلزمُ أن يكون أغلب المجتمع على الأقل مسلمًا وصادعًا بإيمانه، فليس بمعقولٍ أن نقول على مجتمعٍ الكثرة الكاثرة فيه غير مسلمة: إنه مجتمع إسلامي.

ثالثًا: قد يكون حاكم المجتمع غير مسلمٍ أصلًا، لكنَّه يكفل للمسلمين حقَّهم في الأحكام الدينية ويسمح لهم بممارسة شعائرهم، ومن ذلك: الزواج، والطلاق، وصوم رمضان، والاحتفال بالأعياد، فهذا المجتمع –أعني المسلمين فيه– يصح وصفه بأنَّه مُجتمَعٌ مُسلِم.

المبحث الثالث مفهوم السلوك الاجتماعي ومؤثراته

لا يخفى أنَّ السلوك بالمعنى المعاصر لم يكن في العصور المتقدمة، وإنما كان معنى السلوك يدور حول نفوذ شيء في آخر؛ حيث قال ابن فارس: «السين واللام والكاف أصلٌ يدلُّ على نفوذِ شيء في شيء، يُقال: سلكتُ الطريق أسلكه، وسلكت الشيء في الشيء: أنفذته»(١٤).

ومع ذلك فكان المستعمَل قديمًا لفظة «الأخلاق» جمع «الخُلُق»، وهو: «الخُلق: عبارة عن هيئة في النفس راسخة، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية»(١٥).

الفرق بين السُّلوك والخُلُق:

ويفرق بين الخُلُق والسُّلوك أن الخلق أعمُّ من الثاني؛ إذ الخُلُق النظر فيه إلى النفس، والحامل على فعل الخير أو الشر، بخلاف السلوك؛ فهو الفعل المحسوس نفسه، ويمكن أن نقول في الفرق بينهما: الخلق معنوي ومحسوس، والسلوك محسوس فقط.

وقد قيل في تعريف السلوك اصطلاحًا: «أفعال المرء الإرادية المتجهة نحو غاية معينة مقصودة» كقول الصدق والكذب، وأعمال الشجاعة والجبن، والكرم والبخل، وغيرهما(١٦).

قبول السلوك للتغيُّر:

ما دامت السلوك بعض الخُلُق، فإنَّه مثله في قبول التغيُّر، وقد ناقش الإمام الغزالي مسألة تغيير الخلق، فقال: «**اعلم** أن بعض من غلبت البطالة عليه استثقل المجاهدة والرياضة والاشتغال بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق، فلم تسمحْ نفسه بأن يكون ذلك؛ لقصوره ونقصه وخبث دخيلته، فزعم أن الأخلاق لا يتصور تغييرها، وأن الطباع لا تتغير، واستدلَّ فيه بأمرين:

أحدهما: أن الخُلق هو صورة الباطن كما أن الخَلْق هو صورة الظاهر، فالخلقة الظاهرة لا يقدر على تغييرها، فالطويل لا يقدر أن يجعل نفسه قصيرًا، ولا القصير يقدر أن يجعل نفسه طويلًا، ولا القبيح يقدر على تحسين صورته، فكذلك القبح الباطن يجري هذا المجرى.

والثاني: أنهم قالوا: حسن الخلق إنما يحصل بقمع الشهوة والغضب، وقد جربنا ذلك بطول المجاهدة، وعرفنا أن ذلك مِن مقتضى المزاج والطبع، وأنه قطّ لا ينقطع عن الآدمي، فاشتغاله به تضييعُ زمانٍ بغير فائدة، فإن المطلوب هو قطع التفاتِ القلب إلى الحظوظ العاجلة، وذلك محال وجوده»(١٧).هكذا عرضَ الإمام الغزالي رأي الذين قالوا بأن الأخلاق غيرُ قابلة للتغيير، وأبان عن أمرين استدلوا بهما، وقد ردَّ عليهما فيما ذهبوا قائلًا: «لو كانت الأخلاق لا تقبل التغييرَ؛ لبطلت الوصايا والمواعظ والتأديبات، ولما قال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: **حسنوا أخلاقكم**.

وكيف ينكر هذا في حق الآدمي وتغيير خُلق البهيمة ممكن؛ إذ ينقل البازي من الاستيحاش إلى الأنس، والكلب من شره الأكل من الصيد إلى التأدب والإمساك والتخلية، والفرس من الجماح إلى السلاسة والانقياد، وكل ذلك تغيير للأخلاق!

والقول الكاشف للغطاء عن ذلك أن نقول: الموجودات منقسمة:

[١] إلى ما لا مدخل لاختيار الآدمي في أصله وتفصيله كالسماء والكواكب، بل أعضاء البدن داخلًا وخارجًا، وسائر أجزاء الحيوانات، وبالجملة: كل ما هو حاصل كامل وقعَ الفراغُ من وجوده وكماله.

[٢] وإلى ما وجد وجودًا ناقصًا وجُعل فيه قوَّةٌ لقبول الكمال بعد أن وُجد شرطُه، وشرطه قد يرتبطُ باختيار العبد، فإن النواة ليستْ بتفاح ولا نخل، إلا أنها خُلقتْ خلقةً يمكن أن تصير نخلةً إن انضافتِ التربيةٌ إليها، ولا تصير تفاحًا أصلًا، ولا بالتربية.

فإذا صارتِ النواة متأثرةً بالاختيار حتى تقبلَ بعض الأحوال دون بعض؛ فكذلك الغضب والشهوة، ولو أردنا قمعهما وقهرهما بالكلية حتى لا يبقى لهما أثرٌ؛ لم نقدرْ عليه أصلًا، ولو أردنا سلاستهما وقودَهما بالرياضة والمجاهدة؛ قدرنا عليه، وقد أُمرنا بذلك، وصار ذلك سبب نجاتنا ووصولنا إلى الله تعالى»(١٨).وخلاصة الأمر في تلك المسألة: أن السلوك قابل للتغيير، ولذلك طرق مختلفة، وسنعرض في نقط محددة **العوامل التي تؤثر في السلوك الاجتماعي:**

أولًا: طبيعة النشأة الأولى، والعادات والتقاليد التي يتربَّى عليها المرء، والأعراف التي يخشى الناسُ أن يخالفوا عنها.

ثانيًا: الدين أو ما ينزل منزلة الدين مما هو يرجعُ إليه المرءُ؛ لمعرفة الخير والشر، والصواب والخطأ، والحق والباطل، ولا يلزم أن يكون الخُلق قبيحًا؛ لكون صاحبه غير مسلمٍ؛ فلا يخلو دين ولا مذهب فلسفي من خُلُق، لكن لا شكَّ أن أكملَ الخُلق ما ورد في الشرائع الصحيحة.

ثالثًا: المصالح في كثير من الأحيان، وهي ليستْ بعيب ولا ميزة؛ حتى تكون المصلحة تعود على صاحبه بخير في الآخرة.

الفصل الثاني

المبحث الأول أثر العقيدة في الفرد

لقد حيَّر الإنسانَ من قديمٍ الأسئلةُ الثلاثةُ الكبرى، وهي:

– من أين جئنا؟

– وما الهدف من الوجود؟

– إلى أين نذهب؟

وقد أجاب الدين عن هذه الأسئلة، فأما الأول؛ ففي قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا ﴾[١٩]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾[٢٠].

وأما جواب الثاني؛ ففي قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾[٢١].

وأما جواب الثالث؛ فبعد جواب السؤال الأول من نفس السورة: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ﴾[٢٢]، وقوله تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ ﴾[٢٣]، وقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ ﴾[٢٤].

وما دام المرء مؤمنًا بهذه الإجابات، معتقدًا بها تمامَ الاعتقاد؛ فإنَّه في جميع أحواله وكامل أفعاله يرجع إلى القرآن الكريم، والسنة والنَّبوية، فالعقيدة تؤثِّرُ في سلوكه الاجتماعي التأثيرَ الحسنَ، وذلك على النحو التالي:

أولًا: العقيدة تبعث على مراقبة الإنسانِ نفسَه، واستحضار أنَّ أعماله محسوبة عليه، فإن خيرًا فخير، وإلا فالعاقبة على نفسه، فالله مطَّلع على جميع أفعال المرء وسلوكه في مجتمعه، قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾ ﴾[٢٥]، و﴿ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ ﴾[٢٦]، وقول النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**فإن لم تكن تراه، فإنَّه يراك**»[٢٧]. وتأثير هذه العقيدة في نفوس الأفراد وسلوكهم بالغ الأهميَّة، وذلك لأن القوانين وأجهزة المراقبة ليستْ محصيةً لجميع سلوك الفرد في مجتمعه، فالذي لا يستحضر هذه العقيدة يتفلَّتُ من القوانين ويتحايل عليها، ويتملَّص من أجهزة المراقبة، ويسلُك سلوكًا في مجتمعه ليس مرضيًّا!

ثانيًا: أنَّ الإيمان يبعث على حبِّ المرءِ لغيره كحُبِّه لنفسه، ومن ذلك نَأمنُ في سلوك الأفراد الاجتماعي الاستغلال، والكذب، والانتهازية، قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**لا يُؤمنُ أحدُكم حتَّى يُحِبَّ لأخيه ما يُحِبُّ لنفسِه**»[٢٨].

وقد يظنُّ أن هذا السلوك خاصٌّ بالمسلمين فقط، والأولى أنَّ هذا السلوك وهو محبَّة الخير للغير مع الكافر أيضًا، قال ابن العماد: «الأولى: أن يُحمل على عموم الأخوة حتى يشملَ الكافر»[٢٩]، ويُؤيد ذلك حديث النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «تحب للناس ما تحب لنفسك، وتكره للناس ما تكره لنفسك»[٣٠].فقد عبَّر النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بالناس، ولم يعبر بالمؤمن، فدلَّ ذلك على أن المراد بالأخوة في الحديث الأول: الأخوة العامة، وهي الأخوة في آدم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ لا الأخوة في الإسلام التي في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾[٣١].

ثالثًا: الإيمان يبعثُ على الأمر بالمعروف، والنَّهي عن المنكر، وذلك يحفظ المجتمعَ من انتشار المنكر، ويفيده بزيادة المعروف والخير فيه، والأمر بالمعروف ليس مقصورًا على العبادات فقط، بل يكون ذلك فيما ينفع عموم المصالح الدنيوية والأخروية، قال تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ ﴾[٣٢]. وباختصار فإنَّ المجتمع الذي يجب على أفراده الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر مجتمع سليم، يشعُر فيه الأفراد بالانتماء لوطنهم ومجتمعهم، وبالمسؤولية تجاه إخوانهم من المسلمين وغير المسلمين، وهم حريصون على الخير للجميع.

رابعًا: العقيدة تمنع من الغشِّ، ومن ذلك يطمئنُّ المجتمعُ الذي تحلَّى أفرادُه بالعقيدة الصحيحة، والتديُّن المعتدل إلى كلِّ تعاملاته في البيع والشِّراء، فقد قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**ومن غشنا فليس منا**»[٣٣].

فأخطرُ ما يشكو منه المرء سلوك البائعين الذي يغشون في المنتجات، ويزيفون في جودتها، ويغيرون تواريخها أحيانًا، فكلُّ ذلك مما تبعث العقيدة على الفرار منه، والابتعاد عنه.

خامسًا: العقيدة تبعث المرءَ على إحسانه إلى جاره، فلا يظلمه، ولا يخونه، ولا يسرقه، بل إذا وجده محتاجًا؛ أعانه على حاجته، وإذا ألمَّ به من مصابٍ؛ شاطره حزنه، وخفَّف عنه ذلك، ودرأ عنه ما يكره، قال النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**من كان يُؤمن بالله واليوم الآخر؛ فليُحسن إلى جارِه**»[٣٤]، وقال صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**ما زال جبريلُ يُوصيني بالجار، حتَّى ظننتُ أنَّه سيورثه**»[٣٥].

سادسًا: العقيدة تبعث على التحلّي بالصدق والأمانة والتحرّي، وتمنع من الكذب وبثِّ الأراجيف والإشاعات، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦ ﴾[٣٦].وقد سُئل النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: هل يزني المؤمن؟ قال: «**قد يكون من ذلك**»، قال: يا رسول الله، هل يسرق المؤمن؟ قال: «**قد يكون من ذلك**»، قال: يا نبي الله، هل يكذب المؤمن؟ قال: «**لا**»، ثم أتبعها رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فقال هذه الكلمة: ﴿ إِنَّمَا يَفۡتَرِي ٱلۡكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾[٣٧]،[٣٨].فالكذب وبث الأراجيح سلوك قبيح، يؤثر في المجتمع تأثيرًا مضرًّا جدًّا، وهو من الأسباب التي تهدم المجتمعات، وتحرّك نار الفتنة فيه، ولذلك كان دور العقيدة في ذلك قويًّا ينهى عن ذلك، حتى قال النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ما معناه: المؤمن لا يكذب!

كيفية تحسين الفرد سلوكه في المجتمع:

قد يكون المرء في حاجة إلى تحسين سلوكه، لكنَّه لا يعرف الطريق إلى ذلك، وسبيل تحسين السلوك هو سبيل تحسين الخُلق الذي قال فيه الإمام الغزالي: «والوجه الثاني لاكتساب هذه الأخلاق: المجاهدة والرياضة: أعني بها حملَ النفس على الأعمال التي يقتضيها الخُلق المطلوب، فمن أراد مثلًا أن يحصِّل لنفسه خلق الجود؛ فطريقه أن يتكلَّفَ تعاطيَ فعل الجود، وهو بذل المال، فلا يزال يطالب نفسه ويواظب عليه تكلفًا، مجاهدًا نفسه فيه حتى يصيرَ ذلك طبعًا له، ويتيسر عليه، فيصير جوادًا»[٣٩].

وكذلك من وجد في سلوكه بالمجتمع قبحًا؛ فليتكلَّف الإتيانَ بنقيضه، حتى يصير ذلك السلوكُ الحسنُ بديلًا من القبيح، إلى أن يصبح طبعًا في الفرد بالمجتمع.

---

[١] مقاييس اللغة لابن فارس: ٨٦/٤، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.

[٢] القاموس المحيط للفيروزآبادي: ٣٠٠، مكتبة تحقيق التراث بمؤسسة الرسالة بإشراف: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة- لبنان، ط٨، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

[٣] المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية بالقاهرة: ٦١٤/٢، دار الدعوة.

[٤] ينظر: المدخل إلى دراسة علم الكلام لـ أ. د. حسن الشافعي: ٢٥، إدارة القرآن والعلوم الإسلامية- باكستان، ط٢، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.

[٥] التوبة: ١٢٢.

[٦] الفقه الأكبر المنسوب إلى الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان: ٨٢، مكتبة الفرقان- الإمارات، ط١، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.

[٧] شرح العقائد النسفية لسعد الدين التفتازاني: ٢٦-٢٧-٢٨، إدارة الصديق دابيل، غجرات، الهند، ١٤٣٩هـ-٢٠١٨م.

[٨] المدخل إلى علم الكلام لـ أ.د حسن الشافعي: ٢٤.

[٩] شرح العقائد النسفية: ٢٢.

[١٠] ينظر: شذا العرف في فن الصرف للشيخ أحمد الحملاوي: ٣٧، دراسة وتحقيق: عادل عبد المنعم أبو العباس، مكتبة ابن سينا، ٢٠١٠م.

[١١] أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، حفظ اللسان عما لا يحتاج إليه، فصل، ومما يجب حفظ اللسان منه الفخر بالآباء، حديث رقم (٤٧٧٤): ١٣٢/٧، تحقيق: د. عبد العلي عبد الحميد حامد، إشراف: مختار أحمد الندوي، مكتبة الرشد- الرياض، ط١، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م.

[١٢] الحجرات: ١٣.

[١٣] آل عمران: ١١٠.

[١٤] مقاييس اللغة لابن فارس: ٩٧/٣.

[١٥] إحياء علوم الدين للإمام الغزالي: ١٩٠/٥، دار المنهاج- جدة، ط١، ١٤٣٢هـ-٢٠١١م، والتعريفات للجرجاني: ١٠١، دار الكتب العلمية- بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

[١٦] ينظر: مباحث في فلسفة الأخلاق لمحمد يوسف محمد: ٧٤، مؤسسة هنداوي، ٢٠١٧م.

[١٧] إحياء علوم الدين: ١٩٩.

[١٨] إحياء علوم الدين: ٢٠٠/٥-٢٠١.

[١٩] النساء: ١.

[٢٠] المؤمنون: ١٢-١٤.

[٢١] الذاريات: ٥٦.

[٢٢] المؤمنون: ١٥.

[٢٣] التغابن: ٣.

[٢٤] آل عمران: ١٠٦-١٠٧.

[٢٥] البقرة: ٢٣٤.

[٢٦] الملك: ١٩.

[٢٧] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة، حديث رقم (٥٠): ١٩/١ من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، حديث رقم (٨): ٣٦/١ من حديث عمر بن الخطاب.

[٢٨] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، حديث رقم (١٣): ١٢/١، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط١، ١٤٢٢هـ.

[٢٩] ينظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين لابن علان: ٢٦/٣، اعتناء: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة- بيروت، ط٤، ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م.

[٣٠] أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، محبة الله عَزَّوَجَلَّ، فصل في إدامة ذكر الله عَزَّوَجَلَّ، حديث رقم (٥٧٣): ٩٨/٢.

[٣١] الحجرات: ١٠.

[٣٢] آل عمران: ١١٠.

[٣٣] أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من غشنا فليس منا»، حديث رقم (١٠١): ٩٩/١، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي- بيروت.

[٣٤] أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الضيف، حديث رقم (٤٨): ٦٩/١.

[٣٥] أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب الوصايا بالجار، حديث رقم (٦٠١٥): ١٠/٨ من حديث ابن عمر، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، حديث رقم (٢٦٢٥): ٢٠٢٥/٤ من حديث ابن عمر.

[٣٦] الحجرات: ٦.

[٣٧] النحل: ١٠٥.

[٣٨] أخرجه الخرائطي في مساوئ الأخلاق، باب ما جاء في الكذب، وقبح ما أتى به أهله، حديث رقم (١٢٧): ٦٩، تحقيق: مصطفى بن أبو النصر الشلبي، مكتبة السوادي- جدة، ط١، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.

[٣٩] إحياء علوم الدين: ٢٠٧/٥-٢٠٨.